دراسات فنية
مخبر الفنون والدراسات الثقافية
جامعة أبو بكر بلقايد تلمسان
Algerian Scientific Journal Platform

المجلد10 العدد: خاص(2024) ص125-133

هل سينما المهجر وسيلة إيديولوجية أم صناعة إبداعية؟ – الجزائر أنموذجا–

diaspora cinema an ideological medium or a creative industry? - Algeria as a model -

د.بولعباس عبد الرحمن

جامعة الحاج لخضر باتنة1 مخبر أبحاث في التراث الفكري و الأدبي بالجزائر

abderrahmen.boulabbas@univ-batna.dz

معلومات المقال

تاريخ الارسال: 2023/09/06

تاريخ القبول: 2023/10/01

الكلمات المفتاحية:

- ✓ الايديولوجية
- ✓ السينما
- ✓ الجزائر
- ✓ المهجر
- ✓ الهوية
- ✓ الخطاب
- ✓ السمعي البصري

الملخص:

السينما بأي شكل من الاشكال لا تخلو من الايديولوجية سواء اكانت مباشرة او ضمنية، باعتبار ان صانعيها يقدموا الأفكار والرؤى من خلال طبيعة النظام الذي تعمل داخله وتعكس أيديولوجيته، الأمر الذي يصعّب قطع الصلة ما بين السينما ووظيفتها الأيديولوجية، وذلك ما وجدناه في سينما المهجر، بالرغم من اتقانها للصناعة السينمائية على المستوى التقني بأساليبها الاخراجية المتنوعة، الا انها مارست ايديولوجية حادة على المستوى الفكري الذي يظهر في نظام الخطاب السمعي والبصري، فمن خلال ذلك الخطاب الموظف قد سار عكس خصوصية الأمة، من خلال التركيز على العناصر والمظاهر الشاذة التي قدمت بها النماذج المتمثلة في الشخصيات وما تحمل من فكر متطرف، والأصل في العمل الفني يجب أن يصور ما يمكن أن يصبح عليه المجتمع، لتصبح العملية الفنية تأطيرية للمجتمع أكثر منها تشخيصية أو نقل الواقع بدون صنعة فنية.

.

Article info

Received *2023/09/06*

Accepted ……..

Keywords:

- ✓ *Ideology*
- ✓ *cinema*
- ✓ *algeria*
- ✓ *diaspora*
- ✓ *identity*
- ✓ *discourse*
- ✓ *audio -visual*

Abstract :

Cinéma in any way is not devoid of ideology, whether direct or implicit, considering that its makers present ideas and visions through the nature of the system within which it operates and reflects its ideology, which makes it difficult to cut the link between cinema and its ideological function, and this is what we found in the cinema of the diaspora, despite its mastery of the film industry at the technical level with its various directorial methods, but it practiced a sharp ideology at the intellectual level that appears in the audiovisual discourse system, through that discourse The employee has gone against the privacy of the nation, By focusing on the anomalous elements and manifestations in which the models represented in the characters and the extremist ideology were presented, the origin of the artwork must depict what society can become, so that the artistic process becomes more framing for society than diagnostic or conveying reality without artistic workmanship.

المؤلف المرسل :د. بولعباس عبدالرحمن

مقدمة:

مارس صناع السينما في المهجر داخل الطرح الفيلمي الصياغة الإيديولوجية، تلك الصناعة اعتنقت فيها سينما المهجر الابداع على مستوى التقنيات والتطرف على مستوى المضامين وافكارها، على اعتبار السينما صناعة وفي نفس الوقت وسيلة للتبليغ، تبليغ ما يريده الذين يقفون خلف تلك الالة من خلال اظهار افكار وتوجهات يبتغون ايصالها للمتلقي، حتى اصبحت تلك الإيديولوجية توجد في كل اعمالهم السينمائية حتى ولو كانت سينما تجارية، يمارسها اهل الصناعة داخل افلامهم من اجل تحقيق مبتغاها باعتبارها فن جماهيري ذو فاعلية ثقافية واجتماعية وسياسية، متضمنة ايديولوجية حادة ومتطرفة من خلال الكثير من الافكار والرؤى التي ابتغت تثبيتها داخل النسيج الاجتماعي، كما ساعدت التطورات التي حدثت على صعيد تناول السينما للموضوعات والأفكار على الولوج الى العوالم الانسانية والفكرية بطرق وصيغ جمالية وفنية تعد في غاية الاهمية؛ كونها تعبر عن مفاهيم ايديولوجية بصيغ مباشرة وغير مباشرة، وما تحمله سينما المهجر هو ايديولوجية الخصوصية التي تتمثل في القيم الثقافية والاجتماعية والسياسية، والتي تختلف من مجتمع لآخر وفق ضرورة الحتمية التاريخية.

وسلكت الدراسة المنهج التحليلي النقدي للكشف عن الدلالة التضمينية للإنتاجات السينمائية في المهجر .

من خلال هذه الافتتاحية نطرح الاشكالية التالية، هل سينما المهجر مارست الابداع الفني في اعمالها ام صاغت ايديولوجية محددة سارت عليها؟ لتتفرع عن هذه الاشكالية عدة فرضيات: هل الهجرة كانت بسبب فقدان فضاء الابداع والحرية للتطرق إلى هموم الوطن؟ أم هي رغبة التغلغل في الطابوهات؟ وهل ما يقدمه مخرجو المهجر إحساس صادق بمشاكل وطن الانتماء؟ أم أن الأمر لا يتعدى أن يكون رؤية ايديولوجية يمولها الاجنبي؟ واستنادا لهذه للإشكاليات حاولنا الوقوف عند بعض النقاط التي لابد من تسليط الضوء عليها، من تعريف للإيديولوجية، سينما المهجر بين الابداع والمضمون الايديولوجي في الجزائر، وانهينا بحثنا هذا بأهم النتائج المتوصل اليها.

1– تعريف الايديولوجيا:

يعتبر مصطلح الإيديولوجية من المصطلحات الشائكة التي شغلت اهتمام عدد كبير من الباحثين والمفكرين في مختلف مجالات العلم والفكر، وهناك العديد من المحاولات التي تتعرض للمفهوم من جوانب عدة، والملاحظة التي سجلتها من بعض المصادر هي ان هناك ما يشبه الاجماع بين عدد من الباحثين لتعريف الايديولوجيا بأنها نظام شامل من المفاهيم والمعتقدات يميز سلوك ومواقف واراء جماعة او حتى فرد من الناس، فللإيديولوجية قدرة تكمن في إحاطتها بالحقائق الاجتماعية والعمل على صياغتها بشكل جديد، فهي لا تقوم باستبعاد عناصر محددة من الواقع بقدر ما تسعى لتقييم نسق يكون شاملا لكافة العناصر النفسية والاجتماعية والدينية، لكن بنسق يخدم منتج تلك الإيديولوجية.

يشير مصطلح الأيديولوجيا إلى مجموعة من الأفكار التي يحاول من خلالها ربط الفكر العام، باعتبارها محاولة لتشكيل اعتقاد الناس وبالتالي كيف يتصرفون، كما يستخدم هذا المصطلح للإشارة إلى مجموعة شاملة من الأفكار التي توضح وتقيَم الأوضاع الاجتماعية... (DANIEL، 2014،

صفحة 05)، أي باعتبارها تبني أفكار ومعتقدات لها فعالية حسب رأي ما، لأنها تعزل الجماهير عن الواقع، وهي لها فعالية حسب رأي آخر، لأنها تبسط لهم الواقع وتفهمهم إياه يعبر عن توجه منتج تلك الايديولوجيا، انها تؤدي معاني مختلفة حسب منظور المتكلم.

والأيديولوجيا كما جاء في معجم العلوم الاجتماعية والفلسفية على أنها مجمل التصورات، والأفكار، والمعتقدات، وطرق التفكير لمجموعة سواء كانت أمة أو طبقة أو فئة اجتماعية أو طائفة دينية أو حزب سياسي، وتكون الأيديولوجيات عادة مشروطة ومحددة بالظروف المناخية والعادات (سعيد، 2004، صفحة 149)، وهي في بعض معانيها تنبع من الماضي وتحن إليه، وفي البعض الآخر تعكس الحاضر والأمر الواقع، وفي معنى ثالث تبشر بالمستقبل والمثل الأعلى.

انها العلم الذي يدرس مدى صحة أو خطأ الأفكار التي يحملها الناس، هذه الأفكار التي تبنى منها النظريات والفرضيات التي تتلاءم مع العمليات العقلية لأعضاء المجتمع، وذهب بعضهم إلى أنها مجموعة منظمة من الأفكار تشكل رؤية شاملة، وطريقة لرؤية القضايا والأمور التي تتعلق بالأمور اليومية، أو تتعلق بمناح فلسفية معينة سياسية بشكل خاص، أو قد تكون مجموعة من الأفكار التي تفرضها الطبقة المهيمنة في المجتمع على باقي أفراد المجتمع (النادي، الأيديولوجيا: قراءة تأسيسية في البنية المفاهيمية، 2020)، وهؤلاء أصحاب المصالح لا يقدمون خطاب ايديولوجي مباشر دفاعا عن مصالحهم، بل يغطون مصالحهم بإيديولوجيا مناقضة في ظاهرها للمصالح هذه، بل ويصل بأصحاب المصالح أن يقدموا ايديولوجية إنسانية كغطاء لتلك المصالح.

وهكذا يتربى جيل بكامله على كراهية الآخر والنفور منه، أو على قبول التعايش معه، أو على الخوف والحذر الدائم منه، أو على الإعجاب به ومحبته والاطمئنان إليه، أو على احتقاره والسعي إلى السيطرة عليه، أو على الاعتراف به واحترامه والتعاون معه بإخلاص، تنفيذا لسياسة عامة تتبعها الجماعة الايديولوجية تجاه ذلك الآخر (نصّار، 1994، صفحة 126)، فالنظرة الإيديولوجية هي النظرة التي تهدف إلى تزوير الوعي وتغليطه وتقنيع الحقيقة أو طمسها، انها تصنع الوعي الزائف أو المغلوط عن من طريق وسائط مختلفة، مكتوبة او مسموعة او مرئية، وهي الوسائط التواصل الفكري والسياسي والإعلامي الذي تتشكل فيه بحدة.

2- سينما المهجر بين الابداع والمضمون الايديولوجي في الجزائر:

تأثير السينما الهائل في المجتمع تجعلنا ننظر الى السينما بالتدقيق والتحليل وتفتيت محتوياتها، لما لهذا الفن القدرة في بلورة ايديولوجية معينة، ونحن بدورنا نبحث عن طبيعة تلك الايديولوجية التي ادرجت بطرق مختلفة داخل الاعمال الفنية في سينما المهجر، محاولين التطرق لبعض الدلالات التي تضمنتها تلك الاعمال من خلال ما حمله الخطاب البصري واللغوي لصورة المجتمع الجزائري.

يعتبر الابداع محاولة خلق جديد للواقع وبدونه يحدث أزمة في التفكير والوعي، ولكن المشكلة تمكن بالأساس في علاقة النخب السياسية والسينمائية بالمجتمع فهي علاقة محدودة؛ نظرا لتباعد الرؤي والأفكار فكلاهما ينظر إلي الواقع من منظوره الشخصي ويتغافل احتياجات المواطن، وبالتالي تأثير المثقفين في المجتمع لا يمكن عزلة عن الحياة السياسية والثقافية في المجتمع. (حسن، كيف وجدت الفلسفة دروبها في عوالم السينما والصورة؟، 2015)

تشكّل الايديولوجية السمة الاساسية للأفلام السينمائية المعاصرة، وتظهر في الطرح الفيلمي من خلال الخطاب السمعي البصري الذي يختاره القائمين على العمل، ولا يوجد فيلم سينمائي يخلو تماما من الأيديولوجية؛ إذ لا بد أن يحمل أيديولوجية معينة على اختلاف نوعه سواء أكان قصيرا او

طويلا، اجتماعي او سياسي؛ لأن الفيلم صورة من صور الفكر الذي يعبر فيه السينمائي عن رؤيته، وعلاقاته المتعددة مع الإنسان والمجتمع، وتعد الصناعة السينمائية نوعا من التفاعل بين الفنان والمجتمع الذي يحيط به، فيلقي الضوء على قضايا المجتمع، ويتفاعل معه تفاعلا عميقا، محاولا النفاذ إلى جوهر الأمور، وتختلف نظرة السينمائي إلى الواقع؛ فإما أن تكون نظرته سلبية تطمس ما في الواقع من صراع وتناقض، أو تكون إيجابية تعبر عن حركة الواقع والصراع فيه، والسعي إلى التأثير في ذلك المجتمع، فقدرة الإيديولوجيا داخل العمل السينمائي تكمن في قدرتها على الإحاطة بالحقائق الاجتماعية وصياغتها صياغة جديدة؛ فهي لا تستبعد عناصر معينة من الواقع بقدر ما تسعى لتقييم نسق يضم عناصر نفسية واجتماعية ودينية جديدة مماثلة للواقع الذي تدعو إليه، ويتأكد هذا المنزع في كل مراحل إنتاج الفيلم، أي فيما يتعلق بالموضوع، والأسلوب، والمعاني، والسرد، وذلك من خلال طبيعة النظام الذي تعمل داخله وتعكس أيديولوجيته، الأمر الذي يصعّب قطع الصلة ما بين السينما ووظيفتها الأيديولوجية، فقد تحولت السينما بالفعل إلى أداة لفكر معين يؤدي بدوره إلى تصوير الواقع بذلك الشكل، فهناك دائما اتجاه وتحيز داخل الفيلم يريد المنتج– الممول، المخرج– ايصاله لدي المشاهد بشكل مستمر.

ما هو ثابت ان كل سينمائي في المهجر له فكره وايديولوجيته الخاصة، يحاول بثها في مجتمعه الاصلي وواقعه حسب ما يراه من زاويته التي تحمل ثقافة غربية المتأثر بها، مما يعني ان ذلك المبدع كان في مجتمعه وبيئته الاصلية مقتنع بما يحمله من افكار وفكر حول هويته وثقافته، لكن بتغيير بيئته ومعايشته لمجتمع اخر يختلف عن مجتمعه، مسته موجة الانسلاخ والانعتاق من ثقافته، محاولا تغيير ما كان عليه واعتناق ما يعيشه وفرضه على مجتمعه الاصلي، ونقول هذا الكلام باعتبار كل افلام المهجر تعالج الواقع الاجتماعي في الجزائر وليس واقع اخر بمنظور ايديولوجي، يقول مالك بن نبي "إن المثقف الإفريقي الذي كونته باريس ولندن هو في أغلب الأحيان أوثق اتصالا بمنشأ ثقافته منه بمنشأ حياته" (نبي، مشكلة الثقافة، 1984، صفحة 123)، فثقافة المخرج تلعب دور مهم في تشكيل وتبني أفكارا ورؤى يترجمها عبر الصورة والصوت حتى ولو كانت تلك الافكار والرؤى لا تعبر عن مجتمعه الاصلي، بل متأثرا بالثقافة المكتسبة.

وضع منتجي افلام المهجر الطرح الاجتماعي في قالب ايديولوجي بما يتناسب مع ايديولوجيتهم التي اعتنقوها والتي تعبر عن مجتمع غربي بحت وليس عن المجتمع الذي وضعه تحت مجهر عدسته، "إن الغزو الفكري والغزو الثقافي والغزو الإيديولوجي كلها تعني انتهاك القيم التي تقع ضمن حيز الخصوصية الثقافية لمجتمع ما، ويتمثل –في أبشع صورِه– في أن تقوم أمة من الأمم بالسعي لتغيير مناهج التربية والتعليم لدولة من الدول، فتطبقها على أبنائها وأجيالها، فتشوّه بذلك فكرهم، وتمسخ عقولهم، وتخرج بهم إلى الحياة" (مرسي، الثقافة والغزو الثقافي في دول الخليج العربية – نظرة إسلامية، 1995، صفحة 136)، ويمكن ان نسمي ذلك بالتطبيع الثقافي –هذه الحقيقة– من خلال الافلام التي انتجتها افلام المهجر، مثل: فيلم نورمال، فيلم العالم الاخر، فيلم السطوح لمرزاق علواش، فيلم الوهراني لإلياس سالم، تلك الافلام لم تخلو من مخلفات ثقافية دخيلة على المجتمع الجزائري، وباعتبار كل سينمائي يتأثر بالبيئة التي يعيش فيها، والمشاهد الواعي يكتشف من خلال المشاهدة الواعية لهذه الأنساق الفكرية الثقافية المشوهة التي حملتها تلك الافلام، فكل لقطة او مشهد من الفيلم لم تكن هكذا عبثا؛ إنها تحمل في مضمونها دلالات عدة ومغزى يرمي إليه المخرج والجهة المنتجة للعمل، فالصورة لا تحاكي الواقع ولكنها تتجاوزه، وتؤوله وتفتح باب التفسيرات على مصراعيه، حتى يصبح المشاهد في حيرة من الصورة السينمائية، وفي اطار ذلك، تتسم الجماليات في الصورة بتشكيلات ايديولوجية كثيرة، لتصبح الرؤية البصرية في تلك الأفلام كائنا ايديولوجيا، لبعدها عن الواقع تماما.

ان تكثيف تلك المحتويات العديدة داخل العملية الإبداعية الفيلمية، يجعل الفيلم بالضرورة مرهونا بإحدى مناحي العملية التوجيهية، باعتبار الممارسة الفنية تحلي إيديولوجي، وغايات الفيلم تصب في مجملها في تأكيد الرهان الايديولوجي الذي يتسلل عبر الخطاب السمعي البصري، مما يعني أن إبداع فيلم معين هو اقتراح لمجموعة من المعارف والمضامين ووجهات نظر من أجل استثمارها واستنباتها كغايات فكرية وتأطيرية للمتلقي، مما يجعل من تلك المشاهدة عاملا أساسيا في بناء ملامح الهوية الخاصة في بعض أوجه السلوك، أو اللباس، أو طريقة تنظيم الحياة أو التفكير أو ممارسة العلاقات الاجتماعية أو غيرها من مناحي الحياة الشخصية، هؤلاء يمارسون الفن باسم الإبداع، يقدمون أعمالا على أنها فنية، وهي لا ترقى إلى الدرجة الدنيا للإبداع، ولعل هذه الأعمال التي تدّعي الانتماء إلى مجال الإبداع الفني في اتجاهه الواقعي، لا تستجيب لأبسط شروط الإبداع التي تجعلها تستحق الانتماء إلى مجال الفن لعدم توفرها على شروط الإبداع الفني الواقعي، فالواقع الاجتماعي الذي ينتقدونه يرتبط ببناء الشخصية السينمائية، وتنظيم الفضاء المكاني والزماني، وكل ذلك ضمن قالب سمعي بصري يستجيب لمقومات الإبداع الفني، ولعل هذا البناء الفني هو الذي يمكن السينمائي من تبليغ رسالته في النقد الاجتماعي، حيث تتسلل الرسالة إلى مخيلة المشاهد دون المساس بهويته وقيمه الاجتماعية.

تعددت الافلام السينمائية في المهجر على اختلاف توجهاتها، الا انها اشتركت في ايديولوجية واحدة؛ وهي تصوير الواقع برؤية مقصودة ومحدودة، تعبر في الغالب عن الشركة المنتجة للعمل، اما رؤية المخرج فتكمن في الابداع على مستوى التنسيق والترتيب التقني للخطاب الفيلمي، وهذه الافلام اعتبرها افلام اللامشكلة، فهي افلام لها اغراض ايديولوجية ولا يهمها ان تعرض الواقع ومشكلاته، بل القضية الاجتماعية فيها تبدو مختفيه تماما ولا تعبر عن الابداع ولا عن التعقيدات الاجتماعية، وبدورنا نحن نتساءل لماذا تبدو شخصيات هذه الافلام كأنها قادمة من خلفيات اجتماعية لا تمت بصلة الى الواقع؟ والسبب في هذا لا يتم شرحه عمدا لان المخرج والقائمين على هذه الصناعة لا يريدا ان يعقدا فيلمهما بالإشكالية الاجتماعية التي لا تهمهم بالنظر الى نشأتهم التي نشأوا عليها وتحكم شركة الانتاج في توجه الفيلم.

وباعتبار الايديولوجية نسق فكريّ معين، وبالتّالي من الطبيعيّ أن تكون هذه الأفكار مادة جذب مهمة للمتلقي خاصة وأنها تُعنى بالواقع القائم الذي يعبر عن توجهاته وتدعمه وما يجب عليه أن يكون، في حالة اذا كان الوضع لا يتماشى مع توجهاتهم وافكارهم، وكعينة من تلك الافلام، فيلم نورمال – صحيح انه حمل روح العصر للمجتمع الجزائري ونقل لنا عبر اللقطات والمشاهد، قضايا كانت مستجدة، وهو الحراك الشعبي الذي شهده الوطن العربي–، لكن الفيلم وضع مضمون الفيلم في قالب ايديولوجي يخدم توجهاته ذات المصدر الغربي، خاصة عند مشاهدتنا للفيلم رأينا انه احتوى على الكثير من التحريف والتشويه للمجتمع الجزائري وثقافته، من خلال الخطاب السينمائي(صوت وصورة)، وظف فيه المخرج كل الالفاظ السوقية والماجنة التي لا ترقى الى عمل فني موجه لمجتمع محافظ، والأدهى ان تلك النماذج صورهم على انهم مثقفين وواعين ويستطيعون التأثير في الشباب، وفاعلين في المجتمع المدني، فالقالب الذي وضع فيه الفيلم هو محاولة ما يجب ان يكون عليه الوضع في الجزائر، من خلال نماذج الشخصيات التي وضعها على اساس نماذج يقتدى بها، سواء على مستوى شكلها او ما تحمله من توجهات فكرية، فالشكل تمثل في تصرفات الشخصيات وازياءها، وعلى مستوى التوجه والافكار التي حملتها تعتبر من الاساس مشوهة غير موجودة في الواقع، وتبريرنا على ذلك هو ان الفاعلين في المجتمع المدني في الجزائر ليست كتلك النماذج الشاذة التي لا يمكن في أي حال من الاحوال ان تقود وتؤثر في مجتمع مثقف وراقي في معالجة مشاكله مع السلطة، وكأنها تقول هذه النماذج –التي لا تملك حتى كاريزما الحضور– بإمكانها ان تقود وتوجه، مما يجعلنا امام توجهات وافكار متطرفة يحاول ممارسي الصناعة السينمائية بالمهجر ان يجعلوها واقع يجب ان يتقبله المجتمع حتى ولو كان لا يعبر عن فكره وتطلعاته، مستهدفين وعي المشاهد وإدراكهم، وبالتالي تسعى لصياغة فرضيات محددة تحفز المجتمع للعمل بها، لتحقيق غايات حدّدها القائمون على العمل.

فالعمل الإخراجي بمثابة توجيه أو تصويب للمجتمعات من خلال طرح كم هائل من الثقافات أو المعلومات وفق رؤية فنية عالية، وهذه الرؤية يمكن ان تهيمن على العقول أو تسيطر عليها ، "ان عملية تسلل المعلومات والأنباء الخاطئة والكاذبة الى عقل الإنسان والمجتمع مسألة مهمة جدا، بل وخطيرة، لأنها تدخل في التكوين الفكري للإنسان لتؤسس للقاعدة التي يبني عليها أفكاره وآراءه، وبالتالي فإنها تؤثر على عامل الفعل فترسم المواقف والاتجاهات، فالعلاقة وثيقة بين الاعلام والثقافة من جهة تأثير الأول بالثاني" (رستم، جماليات التصوير التلفزيوني، 2008، صفحة 211)، ويبرز التبرير في افلام المهجر كوظيفة من الوظائف التمرير الايديولوجي، إذ يعتمدون من قبل شركات الانتاج الاجنبية لتبرير ما يحاولون تصويره، وذلك طبعًا أمام الجمهور مما يتيح لهم استقطاب الأنصار جدد للطرح الفكري الموجود في العمل السينمائي، لان الفيلم من المنتجات الثقافية التي تلعب دوراً كبيرا في تشكيل القيَم والاتجاهات، فالفيلم ابداع فني يتجسد فيه خطاب اجتماعي وايديولوجي يمكن من خلاله أن تنشر افكار معينة ومقصودة، باعتبار ان الفيلم هو وسيط سينمائي سمعي- بصري يمكن أن يتجلى به التوجهات الفكرية، الثقافية، السياسية، وبالتالي تشكيل الاتجاهات، يقول فرانز فانون في حق تلك النماذج البشرية: "إن المثقف الذي تبع الاستعمار على مستوى العموميات المجردة يريد أن يعيش المستعمِر والمستعمَر في سلام في عالم جديد، ولكن الأمر الذي يعمى عنه أن الروح الاستعمارية قد تغلغلت فيه مع طرائقها في التفكير، هو أن المستعمر لن يهمه البقاء ولا التعايش السلمي متى زال الوضع الاستعماري" (فانون، معذبو الأرض، 2004، صفحة 36).

فيلم اخر لا يقل جرأة عن سابقه وهو فيلم "العالم الآخر" الذي احتوى على العديد من الافكار والقيم التي حملتها الشخصيات والمشاهد من اباحية والفاظ سوقية، لو نظرنا الى تلك الاباحية الموظفة في الطرح الفيلمي نجدها لا تؤثر على البناء الدرامي للفيلم، مما يعني انها تمثل الجانب الجمالي فقط أضيفت للفيلم، وباستطاعة المخرج الاستغناء عنها، لكن حملها الفيلم وحتى بتفاصيلها كما يظهر في نهاية الفيلم، ونحن هنا نتساءل: اين هو الابداع الفني في هذا التجسيد؟ وهل فعلا هو يعبر عن المجتمع الذي وضعه داخل الاطار الفيلمي؟ لا اعتقد ذلك، فهذا انسلاخ هوياتي ردم المخرج، لان ما تجسد في تلك المشاهد هو انحراف عن مرجعية الامة الجزائرية، صانعا ايديولوجية حادة متطرفة، غايتها صنع ثقافة جديدة لمجتمع محافظ ليس اولوياته الجنس، وكمشاهد للفيلم لم ارى ابداعا فنيا، بل اباحية لا طائل منها غير اثارة الغريزة والانحطاط، اما على مستوى الفكر الذي حمله الفيلم من خلال الخطاب السمعي البصري، فتجسدت فيه كل مظاهر التشويه والانحراف، بداية من تركيبة الشخصية البطلة، مسلمة محجبة، لكن افعالها وتصرفاتها لا تدل على ذلك، سفر لوحدها، تقبيل، جنس، هنا يحاول المخرج قول كلام واحد؛ ليس مشكلة ان تكون مسلما وتفعل كل ذلك، وهذا بالضبط ما نتكلم عنه في هذا البحث، تلك الافكار والتوجهات التي يحاول هؤلاء المنبطحين لأسيادهم تمريرها في اعمالهم، في ظاهرها رسالة جميلة للمجتمع وفي باطنها تحمل فكر خطير على المجتمع، تلك الرسائل التي تحملها "البطلة المحجبة" يصورها المخرج على انها "المقاومة لكل الظروف ومضحية من اجل ان تكون مع خطيبها"، نعم ما اجمل التضحية، لكن ليس هذه التضحية التي تكون بالدوس على مرجعية بأكملها يعتنقها المجتمع، فالمخرج وضع رسالة انسانية في قالب ايديولوجي مشوه، مفادها ليس مهما ان تدوس على هويتك وقيَمك من اجل الوصول الى مبتغاك، وكأن الدين جانب هامشي من حياة الامة، وهو في الاصل الحياة كلها.

الإيديولوجية في افلام المهجر لم تكن محض هامش بل كانت سياقا قامت عليه افلامهم، فالشخصيات الفيلمية التي تظهر في افلام المهجر لا يمثلون الشباب والمجتمع، وما أراده المخرجون هو رسم صورة نمطية عن الرجل والمرأة لتقدم في قالب سينمائي مقنع، لتصبح تلك الصور هي واقع المجتمع، فتقديم تلك النماذج في الخطاب الفيلمي الذي يتجسد في الحوار واللقطات تمرر المعاني والأفكار والايحاءات المختلفة، وهنا هم يسيرون عكس التيار او الفائدة من العمل الفني الذي اساسه المجتمع، وهي خلق نماذج سلبية تحمل في طياتها تشوه فكري، من خلال تصوير العديد من المشاهد واللقطات ذات ايحاءات جنسية، لا فائدة منها، سوى الدوس على القيم والعادات والثقافات التي ترفض مثل هذا النوع من الإباحية، والثقافة الجزائرية ذو الهوية الاسلامية العربية لا تسمح بمثل هذه المشاهد، لأنها تتعارض مع قيم وعادات المجتمع التي اساسها الدين، من هنا تعمل هذه الأفلام بمشاهدها

الجنسية على غزو العقول لأفراد المجتمع وتدخل قيّما فاسدة ضد فطرتهم البشرية، وهذا الأمر يؤدي إلى تدمير المجتمعات اخلاقيا واجتماعيا ونفسيا، ما يعني ان الفيلم السينمائي يمهد لأحداث لم تكن موجودة في الواقع ويصنع افكار وتوجهات لا يعتنقها الفرد اساسا، وكأنها تخلق في ثقافة جديدة تريد من المجتمع اعتناقها حتى ولو كانت منحرفة في الاساس، من خلال المزج بين الواقع والخيال ليكون تأثيرها على قيَم الأفراد واتجاهاتهم وأفكارهم قويا.

لم تعد السينما اليوم عملا فنيا ونشاطا تجاريا غايته إبراز ظواهر المجتمع المختلفة في قالب عمل فني، بل أصبحت صناعة وأداة لترويج أفكار ومناهج تخدم مرجعيات فكرية معينة، ذلك ما اعتمدت عليه افلام المهجر كثيرا من خلال التنميط الذي مارسوه داخل الخطاب الفيلمي، بهدف إنتاج نمط ثقافي واحد وفق إرادة المخرج، فالتنميط الثقافي يتزايد كلما كان تقبله متاحا وميسرا، فكل تلك الافلام نجد نفس صورة المرأة في لباسها وكلامها وافعالها ذو الاسلوب الغربي، وعلاقة الرجل والمرأة التي لا يحدها اي حدود، إن التغيير والتأثير علي المواطن من خلال السينما لا يتم من خلال عمل فردي فني قائم بمفرده، وإنما يحدث التأثير والتغيير من خلال التأثير التراكمي للأفلام السينمائية وتقمص بعض الشخصيات، أي محاولة التماهي مع الفيلم وانعكاسه علي سلوكيات الأفراد في المجتمع. (اللطيف، توظيف السينما في المجال السياسي وأثره علي الوعي السياسي في المجتمع المصري في الفترة 2012 إلي 2018م، 2019)

بذلك اصبح يوظف في تراكم الصورة داخل الخطاب البصري التي ينتج عنها الترسيخ والتثبيت، معتبرا اياها توجها يجب ان يعتنقه المجتمع، رغم ان تلك الافلام تعالج في قضايا مجتمع محافظ في اغلبيته، وهنا يمكن ان نسميها ممارسة التظليل، بقصد قلب الحقائق أو تزييف الوعي وتشكيل العقل وفق إملاء شروط ذاته المنسلخة وأسيادهم الذين يعيشون بفضلهم، هنا ينطبق عليهم ما قاله sorlin Pierre "إن المخرجين لا يصورون ما يرونه، ولكن ما يريدون إبرازه أو عرضه" (العماري، سوسيولوجيا السينما: الصورة والمجتمع، 2017)، اي انه لم ينقلوا عمق المجتمع، بل ما املته عليهم ايديولوجيتهم، وفيها جانبين، الجانب الاول يتمثل في ثقافة المخرج وتوجهه الديني والفكري، والجانب الثاني هو شركة الانتاج التي تقف خلف العمل، لأنها الممول المادي لصناعة الفيلم ولها تأثير كبير على توجه الفيلم النهائي.

السينما المهجر تنتج من طرف مخرج جزائري مغترب منسلخ فكريا وثقافيا عن بيئته الاصلية، تموله وتدعمه شركات اجنبية وخاصة الفرنسية لها إيديولوجية معينة، تعمل من خلال تلك الافلام نشر ثقافة جديدة داخل المجتمع، بل ثقافة مضادة لثقافتنا، ويتجلى ذلك بوضوح في تلك المنتجات السينمائية المفرغة من كل هدف أو قيمة، إلا قيم العزف على وتر الشهوات والجسد، ونشر ثقافة العري، ودعوات الحرية الجنسية، والكلام الفاحش، تحت شعار حرية الإبداع، ليصبح من حق الفنان تجاوز كل قيم وضوابط وأخلاقيات المجتمع، بل كلما كان الفنان أجرأ على أخلاق وقيم المجتمع كان عمله الفني أكثر إبداعا ونجاحا واحتفاءا.

خاتمة:

يمكن القول ان سينما المهجر انحرفت عن الممارسة الفنية المعروفة في الصناعة السينمائية التي تتشكل اساسا في الرسالة الهادفة التي تعنى بالتطور المعرفي والفكري والثقافي للإنسان بالشكل الايجابي، ولم تستطيع خلق صياغة ايديولوجية تخدم هوية ثقافية معبرة عن المجتمع وبناء حزمة من القيم الأخلاقية النموذجية فيه، بل انهمكت في تقديم أفلام وأعمال هدفها خدمة إيديولوجية الجهة المنتجة للعمل الفني، وتكوين جمهور ذا تفكير سطحي لا تشغله في الحياة سوى المتع الصغيرة والفكاهة البائسة الخالية من الأهداف الكبيرة، بل تزيد من جهلهم وبقائهم في حالة من التدهور الأخلاقي والفكري، فالفنان الحقيقي هو الذي سيتلهم شخصياته من الواقع أو من التراث وتلك العلاقات الاجتماعية المتشابكة، وتقديمها بطريقة مختلفة ضمن بنية العمل الفني وإسقاطاته الخاصة وقدرته الإبداعية، ليكون العمل الفني عبارة عن تصوير فني خلاّق لذلك الواقع، فالالتزام قيمة أخلاقية مهمة للرقي

الإنساني في كل مجالات الحياة، والصناعة السينمائية كإبداع فني ملزمة بذلك، لأنها تؤرخ للفكر والقضية والهوية الاجتماعية للمبدع، والالتزام سينمائيا له أهله وأخلاقه وأدواته، فالفيلم الصادق هو الحامل للهوية المحلية وقضاياه المهمة.

والنقاط التالية اهم النتائج التي توصلنا لها:

1- تركيز سينما المهجر على المواضيع الغير المهمة لمعالجة قضايا المجتمع.

2 معظم الاعمال السينمائية في المهجر التي تعالج قضايا المجتمع الجزائري داست على الجانب الديني والاخلاقي والثقافي الذي يعتنقه المجتمع، التركيز على كل ما هو جنسي اباحي يثير غرائز المتفرج في الخطاب المسموع والمرئي.

3 انحراف سينما المهجر عن هوية المجتمع الجزائري من خلال تقديم نماذج لا وجود لها في البيئة الجزائرية، بل تقديم ما يريدون ان يثبتوه في المجتمع.

4 التعرض للقضايا التي لا تمد المتلقي بأي فائدة فكرية تطوّر من سلوكه، بل قدمت ما يجعل سلوكه سلبي.

5 معظم افلام سينما المهجر تحريضية وتدعو الى الخروج من القالب الذي يتموقع فيه المجتمع وهو الهوية، ومحاولة صياغة اطر جديدة له لاتخاذها مرجعا، مثل علاقة الرجل بالمرأة.

6 الثقافة الغربية التي تشرب منها معظم القائمين على سينما المهجر وتمويل الشركات الاجنبية لأعمالهم كان لها الاثر في تلك الإيديولوجية المتطرفة التي مارسوها في اعمالهم الفنية.

قائمة المراجع:

- RICHARD DAGGER، DANIEL I. O’NEILL، (2014): POLITICAL IDEOLOGIES AND THE DEMOCRATIC ،Université of Richmond ،NINTH Edition.

- جلال الدين سعيد، (2004)، معجم العلوم الاجتماعية والفلسفية مادة الأيديولوجيا، تونس ، دار الجنوب للنشر.
- محمد فتحي النادي (2020/12/18)، الأيديولوجيا: قراءة تأسيسية في البنية المفاهيمية، https://eipss-eg.org/
- ناصيف نصّار(1994) الأيديولوجية على المحك – فصول جديدة في تحليل الأيديولوجية ونقدها، ط1، بيروت ، دار الطليعة .
- حسن الحريري (24 /2015/06) كيف وجدت الفلسفة دروبها في عوالم السينما والصورة؟ https://aawsat.com/home/article
- مالك بن نبي(1984)، مشكلة الثقافة، تر: عبد الصبور شاهين، ط4، دار الفكر، سوريا.
- محمد عبد العليم مرسي(1995)، الثقافة والغزو الثقافي في دول الخليج العربية – نظرة إسلامية، ط 1، السعودية، مكتبة العبيكان – الرياض.
- رستم ابو رستم (2008)، جماليات التصوير التلفزيوني، الأردن، المعتز للنشر.
- فرانز فانون(2004)، تر: سامي الدروبي، معذبو الأرض، ط1، لبنان، دار الفارابي .
- ندى ياسر عبد المعطي 2019/08/03) توظيف السينما في المجال السياسي وأثره علي الوعي السياسي في المجتمع المصري، https://democraticac
- الصديق الصادقي العماري(2017/07/07) سوسيولوجيا السينما/ الصورة والمجتمع، https://www.almothaqaf.com